

الاسلام والديمقراطية

للاستاذ عبد المجيد نافع

تمة ما نشر في العدد الماضي

رأى عمر مرة يهودياً ممسكاً برسول الله بطالبيه يدين له ، فغضب ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودي وقال : دعني أقوله يا رسول الله . فقال : دعه يا عمر إن لصاحب الحق مقالاً

وخطب أبو بكر فقال : القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق إن شاء الله تعالى

واختلف عمر مع اعرابي فاحتكا إلى أبي بكر فقال : قف بجانب خصمك وقص يا ابن الخطاب قصتك . فقام عمر وعلى وجهه أثر الامتناع . فقال له أبو بكر : أيسوؤك أن تقف بجانب خصمك ؟ قال : لا . ولكن سامني أن كنتيني وفي الكنية تعظيم

ولما أسلم جيلة بن الأيهم ملك غسان وفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه فلقاه عمر بالترحيب ، وبينما هو يطوف يوماً وطىء على إزاره اعرابي فضربه على وجهه ، فشكاه الاعرابي إلى أمير المؤمنين ، فاستدعى عمر جيلة وقال له : إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته . فكبر ذلك على جيلة وقال : ألا تفرقون بين الملك والسوقة ؟ قال : لا . قد جمع بينكما الاسلام . فاستمعه إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلاً ، ولحق بالامبراطور هرقل بالفسطاطية

وجزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد من قيادة الجيش وقال له : ما عزلك لرية فيك ، ولكن افتن بك الناس فخفت أن تفتن بالناس

على أن نفس خالد كانت متشبعة بمبادئ المساواة ، فارتضى أن يهبط من القيادة إلى مصاف الجندي ، وأن يكون في الجهاد جندياً بسيطاً

وإن شئت أن ترى آية من آيات المساواة في الاسلام فأنعم النظر في كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري في القضاء حيث يقول : آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك

وكذلك كان ينبغي عمر العدالة ومظاهر العدالة وجمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق فقال : إني كنت امرأ تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا فماذا ترون أن يحل من هذا المال ؟ فأكثر القوم وعلى رضى الله عنه ساكت . فقال : يا على ما تقول ؟ قال : ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره . فقال : القول ما قال على بن أبي طالب

وما كان المسلمون بأنفون من العمل الحر الشريف ، فقد كان أبو طالب يبيع العطر وربما باع البر . وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يرازا . وكان عثمان يرازا . وكان طلحة يرازا . وكان عبد الرحمن بن عوف يرازا . وكان سعد بن أبي وقاص يبري النبل . وكان العوام أبو الزبير خياطاً . وكان الزبير جزاراً ، وكان عمرو بن العاص جزاراً

يفأخرنا الغريون بهظائمهم الذين خرجوا من صفوف العمال وأولئك بناء مجد الاسلام قد خرجوا من جميع البيئات . ونبتوا في كل الطبقات

وما سقت لك تلك الامثال عبثاً ، وإنما أردت أن أدلك على أن المساواة في معناها الصحيح ، وفي كافة مظاهرها ومختلف صورها لم تتحقق يوماً كما تحققت في الصدر الأول من الاسلام مساواة أمام القانون ، فقد شرع للناس كافة لا فرق بين عظيم وحفير ، وغنى وفقير ، وقوى وضعيف مساواة أمام القضاء ، ولقد أطلعتك على جانب منها في أروع مظاهرها وأسمى معانيه

مساواة في الوظائف العامة ، فقد رأيت كيف ينشأ الرجل منهم في البيئة الصغيرة ثم يصل إلى أسمى مناصب الدولة

مساواة في الضرائب ، فإكانوا يرهقون أحداً أو يظلمون قتيلاً وعلى الجملة فقد كانت مساواة في الحقوق والواجبات

حقق الاسلام مبدأ المساواة السياسية والمساواة المدنية على أنه لم يشأ أن يبنى أتباعه بالمساواة الاقتصادية أو بعبارة أوضح بالمساواة في الأرزاق ، ذلك بأنه دين القطرة

وكيف السبيل إلى المساواة الاقتصادية ، وفي الناس العملاق والقرم والقوى والضعيف وجبار العقل والابله المعتوه

إن نرايمس الطبيعة تأتي المساواة الاقتصادية ، ولئن جاز أن تكون في هذا الميدان مساواة فأولى بها أن تكون مساواة في البؤس والشقاء

ورأى الاسلام أن المساواة الطبيعية مستحيلة . فقال تعالى في

بحكم كتابه : وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات

وشاء الاسلام أن يُلطف من قسوة قوانين الطبيعة فشرع الزكاة . وعندى لو أن نظام الزكاة طبق على وجهه الصحيح لوجدنا السبيل إلى حل المسألة الاجتماعية التي عجز إلى اليوم عن حلها فطاحل علماء الاجتماع في أوروبا . تلك المسألة التي كانت مثار النضال بين الطبقات ، ومبعث المذاهب المتطرفة والنظريات الهدامة وإذن فليس من الاسراف في القول أن يقال ان الاسلام هو الحصن الذي يرد غزوة المذاهب الهدامة التي تهز كيان المجتمع الأوربي أعنف الهزات ، وتهدد الحضارة الأوربية بالتلأشى والإفناء لم تعرف أوروبا المساواة في القرون الوسطى فقد انقسمت الشعوب إلى طبقات ممتازة وطبقات محرومة من الامتيازات ، وكان للاشراف قوانينهم الخاصة ومحاكمهم الخاصة وعقوباتهم الخاصة وضرائبهم الخاصة ، وكانت المدارس الحربية يحرم دخولها على طبقات الشعب ، وكانت المناصب الكبرى في الدولة وقفاً على طبقات الاشراف

وهل تحققت المساواة بمعناها الصحيح في أوروبا اليوم ؟ لا تزال هناك مراحل كثيرة لا يزال على أوروبا اجتيازها قبل ترسيخ قواعد المساواة
أو ليس النظام في فرنسا مزيجاً من النظم الديمقراطية والوضع الملكية والأشكال الأرستقراطية ؟

وانجلترا التي يقولون عنها إنها مهد النظام الدستوري ومعمل الديمقراطية أو ليس فيها إلى اليوم لوردات ومجلس لأولئك اللوردات ؟ أثار كاتب فرنسي الشكوك حول تحقق مبدأ الحرية السياسية في فرنسا فاسترعى النظر إلى أن رأى الأمة الفرنسية لا يؤخذ في أمس الشؤون بحياتها وأشدّها تعلقاً بمصيرها كحالة الحرب مثلاً واستلفت ذلك الكاتب الانظار أيضاً إلى أن القضاة في فرنسا يؤخذون من بيئات خاصة والمحلفين من طبقات عليها مسحة الارستقراطية ، واختلاف العقوبة حين يرتكب الفعل الواحد غنى أو فقير

والحكم مع إيقاف التنفيذ ؟ أفلا يكاد يستأثر به الغنى دون الفقير مع أن الغنى قد يكون اختلاس مبالغ طائلة أو بدد أموالاً كثيرة ؟

أفلا يسخر المداره المقاول من كبار المحامين بلاغتهم في انتزاع الأغنياء دون الفقراء من برائن العدالة ؟

وهل يتاح للفقير ما يتاح للغنى أن يفتي بملابسه فلا يرتدى ملابس السجن ، ويأكل من بيته فلا يأكل من طعام السجن

حين يكون سجيناً تحت التحقيق مقابل جعل بسيط تتقاضاه منه إدارة السجن ؟

وأين المساواة إذا كنتم أيها الغربيون تسلاحون الأغنياء بأسلحة العلم العالي وتجردون منه الفقراء الذين لا يكادون يجدون السبيل إلى ثمن الحيز فضلاً عن أجر التعليم ؟

ليس عجيباً إذن أن يهاجم الديمقراطية خصومها تارة باسم العلم وطوراً باسم الواقع

وليس بدعاً أن يصبح صائح : المجتمع الأوربي يسعى للمساواة ولا يجد السبيل إليها ، شانه في ذلك شأن الإنسانية التي تجد في طلب السعادة والحقيقة فلا تظفر بهما كما أعيأ طلابهما فوست جيته التسامح الديني في الاسلام يقابله الاضطهاد الديني في أوروبا في عصور الظلمات

وإذا ذكرنا اضطهاد الفكر والعقيدة ذكرنا محاكم التفتيش وفي الحق لم تشهد الإنسانية قضاء أشد نزوعاً إلى الظلم وأكثر جنوحاً إلى القسوة من قضاء محكمة التفتيش

نمضت تلك المحاكم لتصد عن الكنيسة تيار الاتحاد المتدين ، فلئن كانت ديبية في نشأتها فإن التعصب قد سخر العدالة في سبيل تحقيق لباتته وغاياته

وفرق ذلك فقد وقفت تناهض كل حركة فكرية وعلمية ، ولعل من أبرز ضحاياها غاليليو الرياضى العلى الشهير . أحدث ذلك العلم ثورة في العلوم الفلكية ولت ردحا من الزمن يواصل العمل في بث نظرياته في دوران الأرض . فاصدرت البابوية ، وفاقا لآراء أبحار محكمة التفتيش قراراً بنقض تلك النظريات وتحريمها ، واعتبارها تحدياً للتصوص المقدسة . ونصح البابا لغاليليو بالكف عن نشر دعاويه . فلم يأبه الرجل لقرار التحريم ، ولم يحفل بذلك النصح ، ومضى في خدمة العلم والحقيقة . وفي عام ١٦٣٢ نشر كتابه ، محادثات عن الاصول العالمية ، فأحدث صدوره رجة عظيمة واستقبلته دوائر العلم والفكر في أوروبا استقبالا حماسيا منقطع النظير . وهنا ثارت ثائرة الكنيسة وحرمت بيع الكتاب في الحال . ودعى غاليليو المشول أمام محكمة التفتيش في روما ، فاعتذر بشيخوخته وضعفه وكان قد نيف على السبعين . فاستشاط البابا غضباً وعد تخلفه عصيانا . فأجاب الدعوة واعتقل في قصر محكمة التفتيش في ابريل من عام ١٦٣٣ . حقق معه وعذب ولم ترحم محكمة التفتيش شيخوخته وضعفه ، وكانوا كلما أمعنوا في تعذيبه ، ولجوا في التشكيل به ، أمن هو في التشبث بالحق ، والاصرار على الحقيقة . فاذا زادوه نكالا صاح في وجوههم : ومع ذلك فإن الأرض تدور !

وإنه ليؤكد أن تعلم أن عدد المحكوم عليهم من محاكم التفتيش المختلفة بلغ في الفترة ما بين ١٤٨١ - ١٤٩٨ - ١٢٥٢٩٤٠ منهم ٨٨٠٠ أعدموا بأحراقهم و٦٥٠٠ أحرقت رموزهم و٩٠ ألفا طبقت عليهم عقوبات مختلفة بالسجن والغرامة والتوبة وفي الفترة ما بين ١٤٩٩ - ١٥٠٦ بلغ عدد المحكوم عليهم ٣٤٩٩٢ منهم ١٦٦٤ أحرقوا و٨٣٢ أحرقت رموزهم والباقي وقعت عليهم أحكام مختلفة

ومن ١٥٠٦ إلى ١٥١٨ بلغ عدد الضحايا ١٦٧٠٥٠ من هؤلاء ٢٥٣٦ ماتوا حرقاً و١٦٣٨ أحرقت رموزهم والباقي طبقت عليهم عقوبات أخرى والآن ندع التقدير للتورخ الشهير ولورتى، وهو أكبر حجة وأعظم ثقة في المارزوق

أحرقوا	٣١٩١٢
أحرقت رموزهم	١٧٦٥٩
طبقت عليهم عقوبات شديدة	٢٧١٩٤٥٠
المجموع	٣٤١٩٠٢١

والآن فاسمع هذا الوصف الذي تمسخر له الأبدان وصاحب الوصف هو فيكتور هوجو ألقاه في الاحتفال بتأبين فولتير : في ١٣ أكتوبر من عام ١٧٦١ وجد شاب مشنوقاً . ثارت الخواطر واضطربت الأفكار . وهاج هائج رجال الدين بينما أخذ رجال القضاء في التحقيق . ومضى الناس بعضهم إلى بعض يتساءلون : انتحار أم قتل ؟ وكان الاتهام منصبا على رأس الوالد . وقال الذين أناروا الشكوك حوله إنه من الهجنوت وقد حال بين ابنه وبين اعتناق المذهب الكاثوليكي . وكانت البداية تجم هذا الاتهام وتحمى الوالد من ارتكاب هذا الجرم الفظيع . وإلا فأى عقل يسوغ أن يسفك الأب دم الابن ويشنق الشيخ الشاب وما لبث الناس أن شهدوا في يوم ٩ مارس سنة ١٧٦٢ مشهداً هائلاً رهيباً . رأوا رجلاً جليل الشيب فوديه يساق إلى أحد الميادين العامة : ذلكم هو جان كالا ، وما راعهم إلا أن يروا الشيخ المتهم الفاني عارى الجسم مطروحاً على عجلة موثق الأكتاف متدلى الرأس . ووقف إلى جانب المشنقة ثلاثة رجال فأما الأول فطبيب ليعنى به . وأما الثاني فقس يحمل الصليب . وأما الثالث فالجلاد ويده فضيب من حديد .

وعرت الضحية نوبة ذهول واضطراب ، وتمشى الرعب في أضالعه ، فما كان يرنو إلى القس بل كان يرمق الجلاد بنظراته المضطربة الحائرة ، وما يلبث الجلاد حتى يهوى بالفضيب الحديد فيهم نلسكين

ذراعاً . أنين يمزق نياط القلوب يعقبه فقد الرشد . فيتقدم الطبيب فيعيده إلى الصواب بشم بعض الأملاح . فينبى الجلاد لضربة جديدة . صرخات دامية ثم غيبة عن الصواب . يعيدونه للحياة والجلاد يعاود الضرب . وإذا كان كل عضولا بد أن يكسر في موضعين فلا مفر له من تلقى ضربتين . وإذن فقد تلقى المسكين ثمانى ضربات . وفي عقب الضربة الثامنة يقدم القس له الصليب ليقبله . على أن كالا ، يشيح عنه بوجهه . لو كانت الرحمة تجد سبيلاً إلى تلك القلوب المتحجرة لقلنا إن كان في نفوسهم بقية منها فقد أجهز الجلاد على « كالا » بضربة قاضية من رأس الفضيب الغليظة ، عظمت صدره تحطماً . وبذلك وضع حد لعذاب كالا وآلامه . إذ فاضت روحه في الحال

دام التعذيب ساعتين كاملتين ، وما إن مات كالا حتى تبين في جلاء ووضوح أن الشاب مات متحرراً . على أن جريمة قد ارتكبت ومن هم مرتكبوها ؟ هم جماعة القضاة الذين قضوا على كالا بغير الحق .

وفي عام ١٧٦٥ بعد ليلة عاصفة وجدوا على أفرز أحد الجسور صلياً خشياً عتيقاً ملقى على الأرض . ومضت ثلاثة قرون والصليب معلق في رأس السور . فن الذي طرح الصليب أرضاً من ذا الذي اجترأ على ارتكاب ذلك الأثم ؟ لا يعلم أحد . أياكون أحد المارة هو الذي عبث به ؟ أم تكون الريح هي التي عصفت به ؟ ويرى الناس مطران « أميان » يرغى ويريد ، ويرق ويرعد ، ويتوعد ويتهدد بالذار كل من يعلم الحق ثم يكتمه . وهنا تتلاقى هوجاء التعصب مع هوجاء الجهالة . ولا تلبث العدالة أن تكتشف أو تتوهم أن تكتشف أن ضابطين مرا بالجسر وأنها كانا ثملين وينشدان نشيداً حريباً ؟ فأما أحدهما فيلوذ بأذيال الفرار ، وأما ثانيهما ولا باره فتؤخذ بتلاييه ، فيسأل ، فيعصم بالإنكار ويقسم جهداً بآيمانه إنه لم يمر بالجسر . فيبدو لهم أن يسألوه عن شركائه . ولكن شركاه في ماذا ؟ أفي أنه اجتاز الجسر ؟ أم في أنه أنشد وصاحبه نشيداً عسكرياً ؟ ثم يعذّبونه لينزعوا منه اعترافاً فيحطمون إحدى ركبتيه . والمكلف بأخذ الاعتراف منه يهوله صوت قرقرة العظام حتى يغيب عن صوابه من عظم الهول . ثم يسوقون لآبار إلى أحد الميادين العامة ، وقد أذكوا في بعض جوانبها نيراناً مضطربة . يتلون عليه الحكم . فيكسرون إحدى يديه . ثم يستلون لسانه بكاشة من حديد . ثم يرحمونه بأن يفصلوا رأسه عن جسده . ثم يلقون جثته طعماً للنيران ، وكذلك مات لآبار في ربيع العمر إذ لم يكن جاوز التاسعة عشرة وراح ضحية بريئة للتعصب الأعمى .

الارستقراطية هي دعامة الحضارة والرقى، وإن من الناس من يجب أن يعمل بيده ومنهم من يجب أن يتوافر على الأعمال العقلية، وإن حكماء اليونان كان لهم بعض العذر حين ذهبوا إلى تبرير الرق بضرورة أن يفرغ الحكماء لإدارة شؤون الدولة ولا شك أن الديمقراطية تعاني اليوم أزمة شديدة بدليل أن الدكتاتورية قد غلبت على أمرها في بعض الأمم على أن البقاء للأصلح من المبادئ والفوز معقود بلواء الديمقراطية في النهاية إن شاء الله فالذين بنوا الحضارة هم من الطبقات الشعبية لا من طبقات الأشراف.

والمشاهد الملوس في أوروبا أن طبقات الأشراف تفنى سراعاً والمذاهب المتطرفة التي تغزو موجتها أوروبا اليوم لا يلبث أن يتجلى زيفها حين يقين للناس أنها تبني لهم قصوراً من الورق أو قصوراً في أسبانيا والاسلام الذي وقف طوال العصور في وجه العواصف المرح كالجبل الأشم هو الاسلام الذي يقف اليوم معقلاً حصيناً يرد عن العالم الاسلامي عادية خصوم الديمقراطية وعدوان دعاة المذاهب الهدامة فإذا دعونا اليوم للتشبيث بمبادئه والتعلق بتعاليمه فإنا ندعو إلى الاحتفاظ بمعدل الديمقراطية، إنما ندعو إلى الذود عن دين الحرية والأخاء والمساواة.

عبد المييد نافع

أعزبت دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف
بمطبعة الشوشتري خلف بونسى بالموسكى

الجزء الاول والثاني من لسان العرب

وبالنسبة إلى إقبال حضرات المشتركين من العلماء والادباء في مصر والاقطار العربية الشقيقة حددنا آخر موعد لقبول الاشتراك في الجزء الثالث والرابع يوم ٢٠ من يونيو سنة ١٩٣٧ وسيطع منهما زيادة بعدد من يتقدم للاشتراك في بحر هذا التاريخ

وقيمة الاشتراك فيها ٢٠ قرشا صاغاً عدا أجرة البريد عن الجزئين ٣٠ ملياً في مصر وضعفه في الخارج

لم يقض الاسلام بالقاء أحد طعمة للنار لمجرد الزيف في عقيدته ولم يضطهد حرية الفكر والاعتقاد، ولم ينكل بغير معتقيه ولم يطارد العلماء والفلاسفة بل اتسع صدره للعلم والفلسفة. وهنا لا نرى مندوحة عن أن نبذد وهما، فنسارع إلى القول بأن حروب الخوارج لم تكن لها صبغة دينية على الإطلاق، بل كانت حروباً سياسية بحتة. نعم، لم يكن مثارتك الحروب الخلاف في العقائد، وإنما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة الحكم، وما اقتل الخوارج مع الخلفاء لينصروا عقيدة. ولكن سعيًا وراء قلب نظام الحكم وتغيير شكله وما اضطرت نيران الحرب بين الأمويين والهاشميين لشيء غير الخلافة، وبذلك كانت حروباً سياسية لا دينية.

وكان المسلمون إذا هموا بفتح أمة خيروا أهلها بين الاسلام أو الجزية. أو الحرب. وذلك هو أقصى ما يبلغ اليه التسامح. فإذا أدخل الاسلام بلداً تحت ظلاله خلى بين المحكومين وبين حريتهم الدينية، وما يكلفهم إلا الجزية يؤدونها صيانة لأنفسهم وعافاة على أمنهم في ديارهم وذوداً عن عقائدهم ومعاييدهم لهم ما لنا وعليهم ما علينا من آذى ذمياً فليس منا إن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم ذلك هو شعار الاسلام في معاملة الذميين

روى البلاذري في فتوح البلدان انه لما جمع هرقل للمسلمين الجرع، وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حصص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم. فقال أهل حصص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والفسم ولندفن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود وقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حصص إلا أن نغلب ونجهد. فأغلغوا الأبواب وحرسوها

من ذلك ترون أن الجزية كانت تؤخذ مقابل الدفاع يقولون إنا في عصر عملي بكره الاحلام والحالمين بل نحن في عصر مادي فترت فيه حرارة الناس في التعلق بالمثل العليا وانعدم إيمانهم بالمبادئ السامية أو كاد وأصبح من يتشبث فيهم بتلك المبادئ يسمى خيالياً يعيش في السحاب وترى خصوم الديمقراطية يهاجمونها بعنف وشدة، فهذا يهاجمها باسم العلم وذاك يهاجمها باسم الواقع وغيرهما يتكلم عن أزمة الديمقراطية، ورابع يخوض في حديث إفلاسها يقولون إن النواميس الطبيعية لا تعرف المساواة، وإن